

--



وفاء كل من الزوجين للآخر من الأخلاق الإسلامية العظيمة التي تصد ما في الحياة الزوجية من مودة ورحمة وسكن وقد وجدنا في تراثنا العربي والإسلامي نماذج رائعة لهذا الوفاء، وخاصة من قبل المرأة.

[1]

فنعلم ما مات الأحنف بن قيس بالكوفة عام 76هـ، وهو سيد تميم، وكان معروفاً بالعقل والدهاء والعلم والحلم وحسن البیان، وكانت حياته مملوءة بجلال الأعمال، وقفت زوجته وابنة عمه على قبره، وركّته قائلة: "لله ذك من مَن في جنن، ومدرج في كفن، فسأل الذي فجعنا بموتك وإبتلائنا بفقدك أن يجعل سبيل الخرس يسلك، ودليل الرشد يملك، وأن يوسع لك يوم قبرك، وبغفر لك يوم حشرك، فوالله لقد كنت في المحافل شريفاً، وعلى الأرامل عطوفاً، ولقد كنت في الحي سوداً، وإلى الخليفة مودفاً، ولقد كانوا لقولك مستمعين ولأربك متبعين.

ثم انصرفت وهي تقول:

لله ذك يا أبا بحر ماذا تغيب منك في القبر

لله ذك أي حشو ثري أصبحت من عرف ومن نكر

إن كان دهر فك جد لنا حداثه ووهت قوى الصبر

فلنك يد أسديتها ويد كانت ترد جراث الدهر

فقال الناس: ما مسعنا كلام امرأة قط أصدق ولا أبلغ منه.

[2]

• حديث أم زرع:

ولقد اشتهر في السنة النبوية حديث "أم زرع"، وهو حديث طويل روته السيدة عائشة رضي الله عنها ويقدمه صيغة بلاغية لما كان عليه النساء في الجاهلية، من الوفاء للزوج، أو عدم الوفاء له، وأحوال الرجال معهن من حيث الكرم واللفظ ورعاية الحقوق والمعاملة الطيبة تارة، ومن حيث القسوة والعنف وظل الطعاب وسوء العشرة تارة أخرى.

ومن يقرأ هذا الحديث، لا بد أن يستعين بمعاجم اللغة العربية لكي يفهم معانيه، وما يتضمنه من ألفاظ وأوصاف بلاغية، تدل على المستوى اللغوي الرفيع الذي وصل إلى عرب الجاهلية رجالاً ونساءً على حد سواء، وسبب هذا الحديث - كما ذكر علماء السنة، ومنهم الإمام النسائي، الذي اشترك في روايته مع الإمام البخاري والإمام مسلم في صحيحهما، قالت عائشة: (فخرجت بمال أبي في الجاهلية، وكان ألف ألف أوقية، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: اسكتي يا عائشة، فإني كنت لك كأي زرع أم زرع)

وقيل: سبب الحديث أن عائشة وفاطمة جرى بينهما كلام، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (ما أنت بمنتهية يا حبيراء عن ابنتي. إن مثلي ومثلك كأي زرع مع أم زرع فقالت: يا رسول الله حدثنا عنهما، فقال: كانت قرية فيها إحدى عشرة امرأة، وكان الرجال خلوفاً، فقلن: تعالين نتذاكر أزواجنا بما فيهم ولا نكذب... وقيل: إن هذه القرية كانت باليمن، وقيل: إنهن كن بكمكة، وقيل: إنهن كن في الجاهلية.)

[3]

تقول السيدة عائشة رضي الله عنها : (جَلَسَ إحدى عَشْرَةَ امرأة، فَتَهاذَنَ فَتَهاذَنَ أَنْ لَا يَكْتُمَنَّ مِنْ أَحْبَابٍ أَوْ أَزْوَاجِهِنَّ شَيْئاً.

قَالَتِ الْأُولَى: زَوْجِي لَحْمٌ جَمَلٌ غَثٌ، عَلَى رَأْسِ جِلٍّ، لَا سَهْلَ قَرَّتَيْ، وَلَا سَهْلِينَ قَسْتَنْتُلُ.

قَالَتِ الثَّانِيَةُ: زَوْجِي لَا آيَتَ خَيْرٍ، إِنِّي أَخَافُ أَنْ لَا أَذْرَهُ، إِنْ أَذْكَرَ أَذْكَرَ عَمْرَةٍ وَجِهرَةٍ.

قَالَتِ الثَّالِثَةُ: زَوْجِي الْعَشَقُ: إِنْ أَنْطَقَ أَطْلَقَ، وَإِنْ اسْكَبْتُ أَعْلَقَ.

قَالَتِ الرَّابِعَةُ: زَوْجِي كَلِيلُ نَهَامَةٍ: لَا خَيْرَ، وَلَا فَيْ، وَلَا خَافَةَ، وَلَا سَامَةَ.

قَالَتِ الْخَامِسَةُ: زَوْجِي إِنْ دَخَلَ فُهِدَ، وَإِنْ خَرَجَ اسْدَ، وَلَا يَسْأَلُ عَمَّا عَهِدَ.

قَالَتِ السَّادِسَةُ: زَوْجِي إِنْ أَكَلَ لَفٌ، وَإِنْ شَرِبَ اشْتَفَ، وَإِنْ اضْطَجَعَ اشْتَفَ، وَلَا يُولِجُ الْكَفَّ لَعَلَّ الْبَثَّ.

قَالَتِ السَّابِعَةُ: زَوْجِي غَيَابَاءَ - أَوْ غَيَابَاءَ - طِفَافاً، كُلُّ دَاءٍ لَهُ دَاءٌ، شَجَاكَ، أَوْ فَلَكَ، أَوْ جَمْعُ كَلَا لَكَ.

قَالَتِ الثَّامِنَةُ: زَوْجِي الْمَسُّ مِنْ أَرْبَبٍ، وَالرَّيْحُ رِيحُ زَرْبٍ.

قَالَتِ التَّاسِعَةُ: زَوْجِي رَفِيعُ الْعِمَادِ، طَوِيلُ التَّجَادِ، عَظِيمُ الرِّمَادِ، قَرِيبُ الْبَيْتِ مِنَ النَّادِ.

قَالَتِ الْعَاشِرَةُ: زَوْجِي مَالِكٌ وَمَا مَالِكٌ، مَالِكٌ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ، لَهُ إِبِلٌ كَثِيرَاتُ الْمِبَارِكِ قَلِيلَاتُ الْمَسَارِحِ، وَأَذَا سَمِعَنَّ صَوْتَ الْمِزْهَرِ يَقِنَنَّ أَنَّهُنَّ هَؤُلَاءِ.

قالت الحادية عشرة: زَوْجِي أَبُو زَرَعٍ، فَمَا أَبُو زَرَعٍ؟ أَنَاسٌ مِنْ حُلِيِّ أَذْنِي، وَمَلَأٌ مِنْ شَجَمِ عَضْدِي، وَيَجْحَنِي جَيْحَتُ الْإِي نَفْسِي، وَجَانِي فِي أَهْلِ غَنَمَةِ بَشَى، جَعَلَنِي فِي أَهْلِ مِهِيلٍ وَأَطِيطٍ وَدَانِسٍ، وَعِنْدَهُ أَقُولُ فَلَا أَفْجِحُ، وَأَرْقُدُ فَأَنْصَحُ، وَأَشْرَبُ فَأَنْتَضِحُ، أَمْ أَبِي زَرَعٍ، فَمَا أَمْ أَبِي زَرَعٍ؟ عَوكُمُهَا رِدَاحٌ، وَبَيْنَهَا فَسَاحٌ، ابْنُ أَبِي زَرَعٍ، فَمَا ابْنُ أَبِي زَرَعٍ؟ مَجْمُوعُ كَسَلٍ شَطِطٍ، وَيَشْمَعُ ذِرَاعُ الْفَرَةِ، بَتَّتْ أَبِي زَرَعٍ، فَمَا بَتَّتْ أَبِي زَرَعٍ؟ طَوَحَ لَيْبُهَا، وَطَوَحَ أَمُهَا، وَمَلَّ كَيْبَانُهَا، وَغَضِبَ جَارَتُهَا، جَارِيَةُ أَبِي زَرَعٍ، فَمَا جَارِيَةُ أَبِي زَرَعٍ؟ كَأَنَّ بَثَّ حَدِيثِنَا شَيْئاً، وَأَنَّ تَفَثَّ مِيرَتِنَا شَيْئاً، وَلَا تَدَلَّايْنَا تَعْمِشَانِ.

[4]

قالت:

خَرَجَ أَبُو زَرَعٍ وَالْأَوطَابُ شَمْخُضٌ، فَلَقِيَ امْرَأَةً مَعَهَا وَلَدَانِ لَهَا كَالْفَهْدَيْنِ، يَلْعَبَانِ مِنْ تَحْتِ خَصْرِهَا بِرُمَاتَيْنِ، فَطَلَقَتْنِي وَتَكَلَّهَ، فَتَكَلَّهْتُ بَعْدَهُ رَجُلًا سَرِيًّا، رَكِبَ شَرِيًّا، وَأَخَذَ خَطِيًّا، وَأَرَاخَ عَلَيَّ نَعْمًا ثَرِيًّا، وَأَعْطَانِي مِنْ كُلِّ رَائِحَةٍ زَوْجًا، وَقَالَ: كُلِّي أَمْ زَرَعٍ، وَيَسِرِّي أَهْلَكَ، قَالَتْ: فَلَرَّ جَمَعْتُ كُلَّ شَيْءٍ أَعْطَانِيهِ مَا بَلَغَ أَصْغَرُ آتِيَةِ أَبِي زَرَعٍ.

قَالَتِ عَائِشَةُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: ((كُنْتُ لَكَ كَأَبِي زَرَعٍ لَمْ زَرَعٍ.))

[5]

• مجالس النساء:

وهذا الحديث البلاغي يعبر عن مجلس من مجالس التسمية، التي كان النساء يعتقدنها في الجاهلية، وخاصة نساء الطبقة المرفهة، اللاتي يعشن فراغا لا يستطعن ملأه إلا بهذه المجالس، فأمرأة العزيز فعلت ما فعلت مع نبي الله يوسف، من محاولات الغواية والكيده له بالسجن بضئ سنين، لما كانت تعيشه من فراغ، والنسوة اللاتي أشعن خبرها كن يعشن فراغا أيضا، ولذلك راودهن يوسف عن نفسه، عندما أعبدت لهن مجلسا، وأخرجت يوسف عليهن ليرين ما هو عليه من الجمال، قال الله -تعالى-: من هذا الموقف: (وَقَالَ سَوْءَةً فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تَرَادُوتُ فَأَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبُّ آلِ رَاحِلَاءَ فِي ضَلَالٍ مَبِينٍ) فلما سمعت بمكرهن أُرْسِلَتْ إِلَيْهِنَّ وَاعْتَدَتْ لِهِنَّ مَكَامًا وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتْ أَخْرِجْ عَلَيْنَّ قُلْمًا رَأَيْتَهُ أَكْثَرُهُنَّ وَقَطَنُ إِبْدِيهِنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لَكُمَا مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (يوسف: 30-31).

وهكذا كانت تتعدد مجالس النساء في الجاهلية وعصور ما قبل الإسلام، ومنها هذا المجلس الذي شاركت فيه إحدى عشرة امرأة، وروته السيدة عائشة، وهي تتحدث مع النبي -صلى الله عليه وسلم- والحديث يبين الأساليب المختلفة للرجال في سياسة النساء ومعارضتهن، ولا شك أن الإسلام يدعو الرجل إلى مياطة زوجته ومسامرتها وإلين الجانب لها، فأرسل رسول -صلى الله عليه وسلم- كان يفعل ذلك مع زوجاته، وكان يسابق السيدة عائشة وتسابقه، فتغلب مرة وبمغلب أخرى، ويقول لها: هذه بنتك، وهو -صلى الله عليه وسلم- القائل: (كل شيء يلهو به الرجل باطل إلا تأديبه فرسه وروحه عن قومه وملاعبة أهله.)

وقيل لرجل من الأعراب كان يجمع الضرائر: كيف تقدر على جمعهن؟ قال: كان لنا شباب يصبرهن علينا، ثم كان لنا مال يصبرهن لنا، ثم بقي لنا خلق حسن، فنحن نتعاشر به ونتعاشي.

[6]

وإذا وقفنا عند كل امرأة ممن تحدثن في حديث "أم زرع" نرى كيف تصف زوجها، نجد الأولى غير راضية عن زوجها لسوء خلقه وغلظة طبعه، فهي تشبهه بلحم الجمل العث الذي تعافه النفس، وتشبه سوء خلقه بالجلل الورع، وليته كان مع غثائه متاحا سهل المرتقي، بل هو على رأس جبل صعب المظلم، ولذلك فهي تنفد الأمل في زوجها لبعوبه الظاهرة والباطنة وسوء عشرته لها، فهو شديد البخل سيء الخلق ميؤوس منه.

أما المرأة الثانية: فلا تختلف زوجها عن زوج المرأة الأولى، فتقول: زوجي لا آيت خيره، إني أخاف أن لا أذره، أي أنها -لسوء معشره وكثرة مثالبه- تخاف أن تطيل في حديثها عنه وعن صفاته القبيحة ولا تترك من خبره شيئا، وهي تكتفي بالإشارة إلى معاييه، فتقول: إن أذكركم أذكركم عجزه وبجره، والمعجز هو تعقد العروق والعصب في الجسد، والجر كالمجر إلى أنه مختص بالطين، وهي بذلك أرادت ذكر عبويه الظاهرة والباطنة، وأن زوجها كثير المعاييب معقد النفس عن المكارم.

وأما المرأة الثالثة: فزوجها في نظرها "عشقي"، وهو المفرط الطول، فله منظر بلا مخبر، وهو سيء الخلق، ولا تستطيع أن تذكره عن أكثر من ذلك فتقول "إن أنطق أطلق وإن أسكت أعلق"، فهي إن ذكرت عبويه ويبلغه ذلك طلقها، وإن سكنت عنها فهي عنده معلقة لا ذات زوج ولا معلقة، وهي مع ذلك متعلقة به وتحيه مع سوء خلقه.

[7]

ولكن الأمر يختلف مع

المرأة الرابعة: التي أخذت تمتدح خصال زوجها الحميدة وجميل عشرته لها، فهي تصفه كليلة نهامة، ونهامة بلاد حارة في معظم السنة، وليس فيها رياح بارد، فيطيب الليل لأهلها بالنسبة لما كانوا فيه من أذى حرارتها، فقد وصفت زوجها بجميل العشرة واعتدال الحال، وسلامة الباطن، فلا أذى عنده ولا مكروه، وهي تذل العيش معه كذلة أهل نهامة بلباسه المعتدل.

وأما المرأة الخامسة: فقد امتدحت هي أيضا خصال زوجها الحميدة وعبرت عن سعادتها معه، فقالت: "زوجي إن دخل فهد، وإن خرج اسد، ولا يسأل عما عهد"، فقد تشبهت بالنفث عند دخوله البيت، من حيث الحياء وقلة الشره وكثرة النوم والوثوب، وإذا خرج من البيت كان أسدا بين الناس، نهابة العامة، ويتغلب على عدوه، وهو شديد الكرم، كثير التسامح، لا يتفقد ما ذهب من ماله ولا يسأل عنه.

[8]

• دم الأزواج:

وبعد أن انقلب الحال من الذم إلى المدح، عاد المجلس إلى دم الأزواج مرة أخرى مع المرأة السامدة والسبابة، فكل منهما تعاني سيء الخصال من زوجها معها، **فالسامدة:** تعاني زوجا لا يهتم بها ولا يراعي شعورها كآمرأة، فتقول: "زوجي إذا أكل لف" أي أكثر من الطعام لما لديه من شه وشرة للأكل، "وإن شرب اشفت" أي لا يبيقي على شيء مما يشرب، "وإن اضطجع انتف" أي يعرض عن أهله عند النوم ويلتص بكسائه وحده، "ولا يولج الكف ليعلم البث" أي أنه لا يمس زوجته ولا يلاطفها ولا يسامرها، ويشبع حاجتها إلى الرجل، ولذلك فهي حزينة لذلك، وتشكو منها وحزنها من رجل لا يفهم طبيعة المرأة.

وأما المرأة السبابة: فإنها تعيش مع زوج غليظ الطباع، تنجس فيه كل عيوب الرجال، فهو أحقر، ثقیل الصدر، عاجز عن النساء، وكل داء تفرق في الناس فهو فيه "كل داء له داء"، ومع ذلك فهو ضروب للنساء، وإذا ضرب إما أن يشج الرأس أو يكسر العظم، أو يجمع بين الشج والكسر، "شجك أو فلك أو جمع كلا لك".

[9]

• طبائع محبة للنساء:

وننتقل مع **المرأة الثامنة والتاسعة والحادية عشرة** لثرى صوراً من طبائع الرجال وأخلاقهم المحبة إلى النساء، فكل منهما تقدم أوصافاً لزوج كريم المعشر، حسن الخلق، يحترم في المرأة أنوثتها، ويولي رغباتها، فالمرأة الثامنة تقول: "زوجي المس من أرب وريح ريح زرب" دلالة على رفقه مع المرأة وطيب معاملته لها، فهو كريم الأخلاق، طيب الرأحة.

وتقول **التاسعة:** "زوجي رفيع العماد، طويل التجاد، عظيم الرمد، قريب البيت من الناد"، فهي تصف بيته بالملو، وهو من بيوت الأشراف التي يضربونها في المواضع المرتفعة، وهو رجل شجاع كريم، يكثر رماده من كثرة النار التي يوقدها لأكرام الضيوف، ويته وسط الناس ليسهل لقائه، فهو لا يهتجج عن أحد.

وتقول **العاشرة:** تصف زوجها مالكا: "زوجي مالك، وما مالك؟ مالك خير من ذلك، له إبل كثيرات المبارك، قليات المسارح، وإذا سمعن صوت المزهري يقنن أنهن هوالك" إن زوجها رجل كريم، يحسن استقبال ضيوفه ويكرم وفادتهن، له إبل كثيرة لا تخرج إلى المرعى إلا قليلا استعدادا لتحرر للضيوف، وإذا سمعن صوت العود والمزممار الذي يستقبل به ضيوفه يقنن أنها هوالك، وأنها ستدبح للضيوف.

[10]

• وفاء بعد فراق:

ونصل إلى المرأة الحادية عشرة: وهي أم زرع التي سمي الحديث باسمها، لثرى وفاء المرأة لزوجها الأول في أعلى صوره، فقد أطالت في وصف زوجها وأمه وولده وابنته وجاريتها، على الرغم من أنه قد طلقها وتزوج غيرها، إلا أنها وقد تزوجت غيره من الرجال- لم تنس حسن معشره وأكرامه لها ومداته خلفه، وأخذت تعددها للنساء.

تقول: "زوجي أبو زرع، فما أبو زرع؟ أناس من حلي أذني، وملأ من شجم عضدي، ويجحنى فيجحت إلى نفسي"، فقد أثقل أذنها بأقراط الذهب والجلي واللؤلؤ، وكثرت نعمه عليها حتى سمن جسمها، وعظمها فغطت إليها نفسها، ثم تقول -مبينة التحول الذي حدث لها من أبي زرع الذي نطقها من الضيق إلى السعة ومن الفقر إلى الغنى-: "وجنني في أهل غنمة بشى، فجعلني في أهل مهيل وأطيط ودانس ومتى، فعنده أقول فلا أفجح، وأرقد فأنتصح، وأشرب فأنتصح"، فقد جددها في أهل غنم يعيشون حياة شاقة، فقلتها إلى أهل خيل وأبل وطعام شهى، وفي بيته كانت تقول فلا يرد لها قولا، وكانت تاتم فلا يوقفها أحد، وكانت تشرب على مهل حتى ترتوي.

ثم تصف أم أبي زرع بأنها كثيرة الآلات والآثان والمتاع، واسعة المال، كبيرة البيت، وتصف ابن زوجها من امرأة أخرى بأنه خفيف الرطاة عليها، فإذا دخل بيتها وقت القبوله ملا لا يضطجع إلا قدرا يسيرا، وأنه لا يحتاج طعاما من عندها، وطو لمع لاختفي باليسر الذي يسد الرق من المالوك والمشروب، فهو طريف لطيف.

وتصف بنت أبي زرع فتقول "بنت أبي زرع، فما بنت أبي زرع؟ طروح أبها، وطروح أمها، وطروح كسانها، وغضب جاريتها" فهي باردة بأبوابها، عطيفة لهما، كاملة الجسد والشخصية، وأنها تغضب جاريتها لما ترى عليها من أثر التهمة والخير، وحتى جارية أبي زرع توفرت فيها صفات حميدة، فهي لا تفشي سرية، وتحافظ على ماله، ولا تخونه في شيء.

ثم تتحدث أم زرع عن الانقلاب الذي حدث في حياتها مع أبي زرع عندما رأى أم زرع ولودا لها طفلان كالفهدين يلعبان تحت خصرها، فطلق أم زرع عقيما، فتزوجت أم زرع رجلا غيره من الأثرياء الشرفاء، فأكرمها وأعطاها من كل الخيرات أصنافا وأزواجاً، ووسع عليها وعلى أهلها، ولكنها لم تنس زوجها الأول وما زالت تذكر فضله وكرمه وفاء له، فتقول: "فلو جمعت كل شيء أعطانيه ما بلغ أصغر آتية أبي زرع".

[11]

وينتهي الحديث بقول النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة وقد أعجبها صنيع أبي زرع مع أم زرع :- "كنت لك كأي زرع أم زرع" وفي رواية "..إلا أنه نطقها، وإني لا أطلقك" وزاد النسائي قول عائشة: "يا رسول الله بل أنت خير من أبي زرع

واخيرا أختي المسلمة

هل لك أن تكتربي لزوجك كأم زرع

لزوجها أبو زرع

كاتب المقالة : منقول

تاريخ النشر : 11/03/2011

من موقع : موقع الشيخ محمد فرج الأصفر

رابط الموقع : www.mohammdfarag.com